مذكرات خاصة

(٤) تجاربي في الحيـــــــاة [٥]

بقلم الاستاذ أسعد لطفي حسن

أراد الله لابنة عمي (زوجتي رضيت أو لم أرض) أن تنمو وتترعرع؛ وأراد الله أن يكون لها أخ جديد خفف الاهتمام بها وفتح أعين والديها للآمال، كأنه (جاب الديب من ديله)؛ فكانت أفراح وكانت حفلات لا أنسى ما جرى فيها من عوائد فاسدة ومضللات وأضاليل؛ وضع الفتى عثمان فأشرقت شمسه في بيت أبيه، وفي أول يوم من مولده جاءت امرأة سوداء — وكان لمقدمها حركة غير معتادة في المنزل، وكان معها امرأتان تحملان حقيبة؛ فراقبت أمرهن وإذا بالعجوز تسمى «الكدية» — وقد حضرت لتبخير المولود وتحصينه من «الأسياد» الشياطين، وهي عجوز الزار، فباتت ليلتها وقد أتممنا بما أعد لها من الأطعمة والحلوى، وأخذت من كل أنواع التحية والاحترام ما أفنى طوال ساعات الليل؛ وما انبلج الصباح حتى أحضروا لها خرافاً وديكة فزاغ بصرها وراغ أمرها وأشارت بعدم ذبحها وتقديمها قرباناً «للأسياد»، وسرعان ما حملت مع كثير من الأرز والمسلي والسكر والوقود وأرسلت إلى بيتها؛ ووعدت هي بالعودة في اليوم السابع (السبوع)؛ وانصرفت وقد ابتلت يدها من تقبيل المودعين — (سأعود إلى الزار ونكباته إن شاء الله).

وفي اليوم الثالث للمولود جاء دور الشيخ حسنين فأطلق البخور وتليت القصائد، وكان يوماً مشهوداً انتهى بإقبال ليله بالأذكار، وإذا بجماعة تحمل الدفوف والطبول تسير أمامهم المشاعل، وهم يرقصون في الطريق وبينهم حامل المزمار والصفارة يتمايلون بشكل مزرٍ، ويتخالعون بحال تدمي قلب المؤمن، وبعضهم — وقد استرسل شعره — أخذ يعلو وينخفض ويقفز في الهواء ويهبط؛ كل هذا أمام المسلم وغير المسلم، وقد أعد سرادق فسيح، حتى إذا ما أقبلوا على الدار قابلتهم النساء بالزغاريد والرجال بالتهليل، وقد احتدوا فاشتدوا في الضرب على الدفوف والطبول وتزايدوا في العزف على المزمار والصفارة، حتى إذا كادت الأرض تميد بهم والسماء تتألم من أعمالهم، هبطوا جميعاً وقالوا — وهم لا يفقهون ونطقوا وهم لا يعقلون وقرأوا وهم يلحنون —: «إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»، فكانوا لا يضبطون مخارج الكلمات ولا يحسنون

(٥) راجع «المرأة» ج ٩ و١١ و١٢ من السنة الاولى .

حركاتها، ولهم فيها طريقة خاصة فى التلاوة حيث لا تظن أنهم يقرءون قرآنا، وتعتقد أنها صيغة كلامية تعودوا أن يقولوها حيث يبدءون همزة إن الله بإطالة محرمة؛ ويمدون «سبحان ربك» بشكل غير جائز، ويختمون «العالمين» بإغراق فى المد، كل هذا مقبول إلا اللحن المحرم؛ وبعد ذلك ـ حاسبهم الله ـ أخذوا يبدءون بفقرات ونغمات يتبعها رقص وتمايل.. الخ، ما هو معلوم مما تمنعنى خطة «المعرفة» أن أفرج عن صدرى منه[1]، وقد مضى هزيع طويل من الليل وانصرفوا. وفى اليوم الرابع سافرت جدة المولود تحمله إلى (ست جبانة) وعادت تحمل البركات، وفى اليوم الخامس سافر مع أبيه إلى (سيدى درهم ودريم) وعاد بالتحويطات والتعويذات! وعدوا فى اليوم السادس حتى اجتمعت وفود كل من ذكرت فى اليوم السابع (يوم السبوع)، وكانوا قد أعدوا « قلة » زينوها بجميع ما تملكه أمه من الحلى والجوهرات؛ ووضعوا مقدارا من الفول وأطلقوا البخور فى كل غرف البيت، حتى إذا انبثق الفجر قامت المولدة واستحضرت هاونا وبدأت تنقر فيه وتلقن ذلك المسكين الأبكم نصائح الطاعة لوالديه ولأهله، ووضعته فى غربال، وعملت ما استطاعت من الشلالات والوثنيات، وجاءت فى الظهر الموسيقى والطبول والزمور ومدت الموائد وتفانى الأب فى استحضار ألذ وأشهى الأطعمة، واستقبل هو وصهره ضيوفهم، وبقى القوم فى حضور وانصراف حتى المساء، وقد أحضروا أشهر المطربين ومكثوا يغنون حتى مطلع الفجر والكل فى فرح وسرور (كل هذا ـ والله ـ من مال اليتيم أسعد وأخيه).

هذه الضلالات والوثنيات تجرى بين أعين العقلاء وأبصارهم فى كل بيت من بيوت المسلمين، وساداتنا العلماء لا يحركون ساكناً، ولا يعملون لانتشال العقائد وصون كرامة الدين؛ رحماك ربى فأنت أرحم الراحمين!.

انقضت هذه الفترة وقد أضاعت من وقتى لياليها السبع، لأنى كنت أقضى طوال ليلى ساهراً، وأتوجه إلى المدرسة مبكراً، فلا أستقر فى مكانى حتى أشعر بدوار يحرمنى لذة الاستماع إلى الدرس، وفى الظهيرة أفترش أرض المصلى وأقوم مثقلا بالنوم فى أجفانى، وأحمد الله إذ كان حسن ظن المعلمين بى يدفعهم إلى الاشفاق بى، فيظنون مرضى، ويبعثون بى إلى الطبيب الذى عافانى وسمح لى بالانقطاع عن المدرسة حتى نهاية الأسبوع، فحرمت من الدروس كل هذه الحقبة، وقد واسانى أحد أصدقائى وتطوع بإرشادى إلى مافاتنى، أحسن الله إليه.

كان فى قدوم ذلك المولود بعض التخفيف عنى، إذ كبرت «زينب» وعوفيت من أمر حملها، وسافر عمى مع زوجته وولديه إلى مزارعه، ووجدت الرغبة عند صهرى فى الحج، وتمت عزيمته وسافر مع زوجته، وبقيت أنا وأخى نستنشق نسيم الحرية، وتمكنت من استعانة

---

(١) «المعرفة» تشكر حضرة الأستاذ الكاتب على ثقته بها، وتنتهز هذه الفرصة لتعلن إلى حضرات الكتاب أنها ترحب بمثل هذه النقدات البريئة التى يقصد منها تطهير الدين الحنيف من تلك الترهات والأباطيل.

وليس أدل على ذلك من أن محرر « المعرفة » كتب مقالات عدة فى مثل هذه الموضوعات مبيناً مزاعم القوم الباطلة فليرجع إليها من شاء.

ما فاتني ، وجاء ختام العام الدراسي فنجحت والحمد لله ، وكنت من طلاب الفرقة النهائية ، ولما عاد عمي وأهله أخبرته بذلك فأعرض عني لأنه كان مهموماً حزيناً ، فأدركت الأمر وبحثت عما أصابه وإذا به خاص بولده عثمان .

عاد عثمان مع أمه وهي تبكي وتولول لأنه أصيب بنزلة معوية ، فقد سامته إلى خادمة أطعمته ولما يبلغ الحول الأول ، فأصيب بقيء وإسهال ، فعجل أبوه بعودته لعرضه على الطبيب ، ولكنه مسكين ، إذ نفذ فيه القضاء ولم ينفع الدواء ومات عثمان ، وحمل إلى القبر وأنا أبكي من البكاء حزناً عليه وحزناً على نفسي وأخي لما سيصيبنا بعد ذلك ؛ وقد صح حدسي إذ أصبحنا موضع النقمة إذ كيف لا نصاب بمرض فنموت ، وكيف يموت عثمان بعد هذه التحويطات والتمائم والأحجبة ؟ وأين الكدية ؟ وأين الشيخ حسنين ؟ وأين زيت ست جيانة ؟ وأين قطعة عمامة سيدي درهم وربع ؟ ولكن الله القوي القاهر أرجع القوم إلى صوابهم ، وأظهر قدرته وأنه هو القاهر فوق عباده لا راد لما قضى به وأراده .

عاد الحاج حسين من حجه وعلم بموت حفيده ، فكان غضوباً قاسياً شديداً ، وقد كرر أمامي « إشمعنا يا ربي الولدين دول ؟ طولت في عمر الاثنين ؟ كنت طول في عمر ده » ... الحاج الآيب من فريضته يقول هذا !! ولكنه معذور لجهله ... إلا أني أذكر أنه أحضر لي « كوفية » ولأخي مثلها ، فأحرمنا منهما وجاد بهما على غيرنا .

أرجع إلى المدرسة وأبتدئ في الدراسة وقد جد أمر واحد وهو لعب كرة القدم ، إذ كان أول وجودها بمدرسة طنطا في سنة ١٨٩٤ ، وكنت شغوفاً بلعبها ، ولكن لرابع مرة لعبتها كانت هادمة لهذه الرغبة ، إذ أصبت في ساق الأيسر بما أبعدني عنها إلى الآن ؛ وانقطعت للدرس وقد كان العام الثاني لامتحان شهادة الدراسة الابتدائية ، وكنت ناجحاً فيه ، وكنت ثالث أبناء مدرستي ، وقد كافأني عمي بإرسالي إلى مزرعته لأقضي فترة من العطلة فيها ، وكانت على شاطئ النهر ، فزودني ببضعة قروش ، ووضعني كأتب تجارته في القطار فوصلت إليها تحت رعاية الله وكنفه ، وهناك قابلني شيخ عجوز لا أدري ماذا استعطفه علي ، إلا أنه قابلني ببكاء طويل ودمع غزير ومكث طويلا حتى خالجني الكدر وبدأت أبكي معه فاسترحمه الحاضرون فسكت ، وبعد قليل علمت أنه من رجال والدي ـ أسكنه الله الجنة ـ ، وكانت تلك الضيعة من تركات أبي فصيرتها حيل الحاج حسين صهر عمي ملكاً لعمي ، ونزعت منا انتزاعا ، وبطريق كلها خبث ومكر وخديعة ، ذلك أنها تركت فلاحة من غير زرع سنوات متتاليات ، فعلت سطحها الأملاح وبانت مواضع الشكوى للمجلس الحسبي واتهمت بالبوار والفساد وبيعت في المزاد الذي رسا لاسم صهر عمي وبالأحرى فقد آلت إلى عمي سامحه الله ... دع عنك أيها القارىء ما يصيب اليتامى من هذه النواحي العامة ، وسر معي في هذه القرية التي تجاور النيل وتتمتع بهوائه العليل ، وادرس معي حال الفلاح

عماد الثروة وأداة الغنى والسعادة وارفع صوتك معى لانصافه وإنقاذه وانتشاله من بؤسه وشقائه .

مصر التى لا يموت فيها جائع ، والتى كلها الخير والبركة، ومورد هنائها الفلاح،وهو العامل على سعادتها ،تتوالى عليه العصور وتتداول الأيام ولا من ينظر بعطف واهتمام إليه، وهو القوة العاملة ، فلا يتساوى بالآلة الصناعية التى يعنى بأمرها ويداوم على نظافتها وتغذيتها بالزيت والشحم وإمدادها بمولدات الحرارة،ومع الأسف الشديد أذكر أن الفلاح لا يعنى بأمره،فقد ترك على فطرته يعيش عيشة سيئة ، ولولا حصانته الطبيعية وقوته الفطرية لانقرض وذهب إلى عالم الفناء،ومن أعجب الأمور اهتمام الانسان بتربية الحيوان والطيور واتخاذ التدابير والوسائل لنموه وعدم انقراضه وابتكار الطرق الموصلة إلى تحسينه وكثرة إنتاجه،بينما ينصرف الانصراف المعيب عن التفكير فى أمر أخيه الفلاح والاهتمام بأمره،مع أنه يقوم على رأسه إنشاء كل ما يراد به من إصلاح أموره ، فلا يكلف الناس مثل ما يتكلفون من القوى والنفقات فى سبيل تحسين حال الحيوان والطير وما سوى ذلك .

الفلاح يقيم فى بيوت لا يرضاها للهتمون بالحيوانات والدواجن ، فان جل همهم لحياتها إيجاد أمكنة تكتنفها الشمس ويدخلها الهواء وتتوالى العناية بنظافتها وكنسها ورشها بالمحاليل المطهرة حتى ينمو الطير والحيوان وهو قليل الثمن وهو ما يملك بالكثرة،ويعيش الفلاح فى كهوف لا يدخلها الضوء ،ولا تصل إليها أشعة الشمس لحظات،ولا يجود عليها الانسان بنظرة يرتد من ورائها البصر وهو حسير ؛ فى تلك الكهوف تتوالد القوى المحركة لدولاب الثروة فى البلاد والعاملة على إسعاد العباد ، حقاً إن الانسان عدو لنفسه وأنانى محب لذاته .

كانت ضجة لها رنة فرح حين ازدان « المعرض الصناعى الزراعى المصرى لسنة ١٩٢٦» باقامة بيت الفلاح فيه ، وكان كعبة الأمل والرجاء فى اتجاه الهمم لانقاذ أغلبية الأهالى مما هم فيه ، وكان ثمة اعتقاد حسن فى التضامن القومى ، ولكنها كانت شعلة حماس وقتى لم تلبث قليلا حتى أصبحت رماداً ، وبقى الفلاح فى ما يعانيه وهو محروم من عناية أبناء وطنه بأمره وهو دائب الكد والجد والعمل ،والعناية الربانية تحصنه من شتى الأمراض.

ولا يفوتنى بعض الثناء على القائمين بأمر المستشفيات المتنقلة التى تقام فى الجهات ؛ ولا أترك الفرصة تفلت دون البحث فى هذا الأمر الهام ، أمر الاستعداد للعلاج دون الاهتمام بالوقاية؛ ولعلى أوفق وأتجاسر على أرباب الفن الحاذقين من الأطباء ـ وقد فاتتهم تلك النقطة الدقيقة ـ فان الاهتمام بانشاء المستشفيات والعمل الجدى فى تعميمها ونشر فضلها ، قد وفر على الفلاح ما كان يتكبده ـ من المشاق والمتاعب والنفقات لانتقاله إلى المدن والعاصمة لمعالجة نفسه أو مريضه ـ ما كان يعترضه فى هذا السبيل من الضرورات التى كانت تجبره على الاستدانة

ولو أن هذا جاء متأخراً إلا أنها حسنة ، ولكن ماذا يكون بعد العلاج، وقد عاد إلى البيئة التى سببت المرض والمعيشة التى لا تزال على حالها؟فلا بد من معاودة المرض مرة أخرى... لقد كان مريضا بالبول الدموى ، وقد أنهك قواه وأضعف جسمه ، فدخل المستشفى ونال الشفاء التام ، ثم رجع إلى شرب الماء المتبرك ، فهل لا يتبدل البول الدموى بحصى فى المثانة أو سواها ؟ أو ذهب إلى المستشفى ليعالج باصرتيه من رمد صديدى حاد ؟ وأراد الله له النجاة وارتد إلى قريته وفيها مثار الغبار والذباب والبعوض يحتل جوها ، فهل يأمن شر مرض آخر وغير ذلك من البلايا التى يعانيها ذلك المسكين والرزايا التى ينوء بحملها ؛ وقد عز بخلدى أن ردم البرك والمستنقعات مما عنى بأمره جد العناية ، ولكنى لا زلت أشعر بأنى لا أنسى تلك القروية الساذجة ، وقد أخذت قليلا من الماء النقى المكرر وحملته فى وعائها النحاسى العتيق وتركته مكشوفاً دون غطاء ، ثم بدأت فى واجباتها فأخذت قليلا منه للطبيخ بواسطة «كوزها» الملقى بجواره ، ثم أعادت الكرة بذلك الكوز فعكر صفو الماء ، ولما أن أتمت عملها أخذت بقية الماء واغتسلت به وغسلت وجهها ، فهل يعصمها بعد هذا من الرمد عاصم ؟ وهل يدفع عن ولدها الذى شرب من ذلك الماء خطر الانكلستوما أى مجهود ؟ هنا وهنا أيضاً يجب البحث فى الوقاية من تلك الأضرار ، وليس ألزم من الاهتمام بتنظيم معيشة الفلاح وبيت الفلاح وحياة الفلاح .

الفلاح على فطرته كقطعة المطاط تملك أن تسيره كما تشاء وتهوى ، فاذا أردت إصلاحه خلقياً تجده أطوع إليك من بنانك ؛ وإن اتجهت لتحسين حاله مالياً وضع كل قواه رهن إشاراتك، فهو صبور ذو جلد كبير على احتمال المكاره، فالآن وقد تطورت كل المناحى الحيوية لا يصح أن يهمل أمره ويترك من غير عناية فيصبح فريسة للأمراض الاجتماعية والجسمانية.

فى هذا الزمن ــ الذى يعنى فيه بالحيوان ويشفق به حتى اجتمع بنو الانسان وأسسوا جمعيات الرفق بالحيوان، وأقاموا المستشفيات لمعالجته، ووضعوا القوانين والعقوبات الصارمة لمن يعتدى عليه، ويقصر فى الاهتمام بأمره ــ لم توجد فى القلوب رحمة ولا رفق بالانسان، ولم يخطر على بال بشر أن ينهض ويهيب بالناس للعناية بهذا المخلوق النافع، حتى يشعر الانسان بآلام أخيه الانسان.

فى القرى مؤلمات كثيرة ومحزنات جمة حيث تجد ذلك المخلوق الضعيف تتقاذفه أمواج الاستهانة فلا يستقر بسفينته على شاطىء.. طول يومه يكد ولا نعيره درجة الاهتمام بالآلة الحديدية التى تباع وتشرى، ولا يجد من يدبر له أمر قوته كما يدبر للآلة أمر وقودها، ولا من يعنى بنظافته كاهتمام بالآلة الصماء، التى من عجيب أمرها ألا يتقدم لها من الزيت أو الشحم إلا ما وضع على الأصول الفنية.

أما الفلاح ، أما الانسان المصرى أو الثروة والقوة العاملة ، فعيشه لا يسمن وعيشته مرة وحالته أسوأ حال .

الفلاح ومن غالبيته الجند المدافعون عن الوطن، القائمون بحراسة الأرواح، العاملون على استتباب الأمن والسكينة لا يفارقهم بؤسهم القديم، إذ لا يعنى بطعامهم كأنهم ليسوا كباقى جنود العالم، ولا تتحرك نحوهم عاطفة المقارنة بينهم وبين من يرابط بجوارهم من الجنود الذين لا يأكلون إلا الفديد، ولا يلبسون إلا الجديد، ولا ينامون إلا فوق الأسرة.

الفلاح — ومن أكثريته اليد العاملة فى المتاجر والمصانع والمعامل، وفى أشق أعمال التعهدات والمقاولات — مغبون فى أجره، مظلوم فى معاملته مع صلابة عضده وقوة يده، وليس من ينصفه، أو يعنى بأمره، أو يحفل به، ويوثق بينه وبين العامل الأجنبى الذى يتناول الأجر مضاعفاً، ويعامل مكرماً محترماً، ويوثق به ولو كان جاهلا.

ولكن الفلاح الحاج حسين صهر عمى، وزوج ابنته، لم يكن فلاح القرية: بل كان فلاح مدينة طنطا، وأمره عجيب ... كان مغرماً بالمال وجمعه، وقد ساعده حظه، وكان يجوب القرى ويجلب منها الغلال والحبوب ليتجر فيها، فكان ربحه وفيراً جداً، فشب على حب المال، وقد ألقت بنا عصا التسيار فى ضيافته، فزين إلى عمى استخدام أموالنا فى تجارته، وحبب إليه مشاركته لنا، واستهواه لهذه الفكرة، وكان أمر الله مقدوراً، وما هى إلا ليلة حتى شاع فى المدينة خبر اندلاع النيران فى محل التجارة، وما هو إلا الصباح حتى بانت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وقضى الأمر، وعادت الخسارة على اليتيمين: أخى وأنا، والحمد لله فقد استنفدت المال ولم تمتد إلى العقار (السيكورتاه).

الفارق كبير جداً بين فلاح القرية البسيط المستسلم لقضاء الله، وفلاح المدينة الصعب المراس، فقد استخدم قوة النسب، وحسب لنفسه ما حسب، وكان — كما بسطت من القول — أن تم له ما أراد، وصادق المجلس الحسبى على الحساب وتم المراد.

ليس فى هذا شىء من العجب، وإنما هذا حال اليتيم: يطمع فى ماله، وتوضع الخطط لاغتياله، ولو كان فى حصانة الوصاية من الأهل، وربما كانت من غيرهم أخف ضرراً، ولكن الذنب واقع على أولئك الذين يقيمونهم أوصياء ويكتفون بمحاسبتهم ظاهرياً، وهذه مشكلة لا يحلها إلا أن يوكل أمر اليتيم إلى هيئة عامة تتحمل مسئولية ولايته، من وقت أن يموت مورثه، وتكون ذات نظام إدارى تصان به حقوق الضعفاء من اليتامى.

فكرت كثيراً وجعلت همى فى تقدير مسئولية عمى، لأنى حللت خطله وخصت تصرفاته، فرجعت أدراجى إلى علة قوية وهى « المرأة »، فان حبه لزوجته جعله يخضع لسلطان أبيها مع وجود الفوارق الكبيرة بين البيئة التى نشأ فيها والحياة التى قضاها فى وسطهم، ولهذا قد اضطررت لدرس الحياة الزوجية فى الأوساط المصرية فى الماضى والحاضر، ولا أضن على قراء « المعرفة » الغراء بما وصلت إليه من حقائق، إذ فيه عبرة وعظة. أسعد لطفى حسن